# المبحث الرابع

## * دراسة سيرة رسول ﷺ تعين على فهم القرآن الكريم فهما صحيحا.

إن الذى يدرس سيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجد فيها ما يعينه على فهم القرآن الكريم، وتذوق روحه ومقاصده؛ إذ أن كثيراً من آيات القرآن إنما تفسرها وتوضحها الأحداث التى مرت بالمصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وموقفه من تلك الأحداث.

كيف عرض القرآن الكريم سيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم؟

من المعلوم أن القرآن الكريم هو المصدر الأول لفهم الملامح العامة لحياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد عرض القرآن الكريم للسيرة النبوية بأحد أسلوبين:ـ

الأول: سرد بعض مشاهد من حياته وسيرته.

الثانى: التعليق على الوقائع والأحداث، التى تَعْرِضُ لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما فيما يتعلق بالأسلوب الأول فإننا نجد القرآن الكريم يتناول جوانب من حياته وسيرته، وذلك كالآيات التى نزلت فى وصف مراحل الدعوة الإسلامية[1].

(١) لقد مرت الدعوة الإسلامية بأربع مراحل:

أ ـ المرحلة الأولى: الدعوة سرا، واستمرت ثلاث سنوات.

ب ـ المرحلة الثانية: الدعوة جهرا وباللسان فقط دون قتال. ونزل القرآن الكريم بأمر الرسول أن يجهر بالدعوة حينما نزل عليه قول الحق ـ جل شأنه ـ : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ سورة الحجر آية ٩٤، وقال له خالقه: ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين* فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعملون. وتوكل على العزيز الرحيم * الذى يراك حين تقوم * وتقلبك فى الساجدين ﴾ الشعراء ٢١٤ ـ ٢١٩ وحين استجاب الرسول ﷺ لأمر ربه وقام بتنفيذه، وقد صعد على الصفا فجعل ينادى: يا بنى فهر، يا بنى عدى، واكتنفه الناس من كل جانب، قال بعد أن بين لهم ما كان عليه قِبَلَ هذه الدعوة: «فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم.. ألهذا جمعتنا؟!

فنزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾ السورة كاملة. وهذا الخبر رواه الشيخان: رواه البخارى ج ٨ ص ٥٦٧، ورواه مسلم ج ١ ص ١٩٥ بمعناه. ورواه ابن جرير الطبرى فى تفسيره ج ٣٠ ص ٣٣٦، وأورده ابن الجوزى فى زاد المسير ج ٩ ص ٢٥٨، وأورده السيوطى فى الدر المنثور ج ٦ ص ٤٠٨، وزاد نسبته لغير واحد من أهل العلم.

جـ ـ المرحلة الثالثة: الدعوة جهرا، مع قتال المعتدين والبادئين بالقتال، واستمرت هذه المرحلة إلى عام صلح الحديبية.

د ـ المرحلة الرابعة: الدعوة جهرا مع قتال كل من وقف فى سبيل الدعوة أو امتنع عن الدخول فى الإسلام، وهذه المرحلة هى التى استقر فيها أمر الشريعة الإسلامية، وحكم الجهاد فى الإسلام.

انظر: كتاب (خاتم النبيين ـ صلى الله عليه وسلم ـ للإمام محمدأبو زهرة ج ١ ص ٣٢٢، ٣٢٣، وفقه السيرة د. البوطى ص ٦٢.

ومن ذلك آيات العتاب التى تبين جزءاً مهماً من سيرته عليه الصلاة والسلام[1].

كما وردت آيات تتحدث عن استماع نفر من الجن لرسول الله حين انصرافه من الطائف[2].

وتحدثت آيات أخرى عن معجزة الإسراء والمعراج[3]. وقد عرض القرآن الكريم كذلك لهجرته حينما تآمر المشركون على

(١) وذلك حينما جاء بعض زعماء قريش إلى رسول الله ـ صلى عليه وسلم ـ فانصرف إليهم يكلمهم ويشرح لهم طمعاً فى هدايتهم. وقد أعرض عن الصحابى الضرير عبد الله بن أم مكتوم حينما مر بهم فوقف إلى جانبهم يستمع، وأخذ هو الآخر يسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان ذلك منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حرصا على الفرصة أن لا تفوته، وأملا فى أن يجيب عبد الله بن أم مكتوم فى أى وقت آخر، فعاتبه الله على ذلك فى سورة «عبس» وأنكر عليه اجتهاده هذا.

ويؤخذ من هذا أنه ليس لأحد من الناس أن يغير شيئا من أحكام الإسلام ومبادئه، أو يتجاوز شيئا من حدوده، أو يستهين بها باسم اتباع الحكمة فى النصيحة والدعوة؛ لأن الحكمة لا تعتبر حكمة إلا إذا كانت مقيدة ومنضبطة ضمن حدود الشريعة ومبادئها وأخلاقها.

(٢) فقد أورد قصة ذلك ابن إسحاق فى سيرته، وهذا دليل على وجود الجن، وأنهم مكلفون، وأن منهم من آمن بالله ورسوله، ومنهم من كفر ولم يؤمن، وقد ارتفعت هذه الدلالة إلى درجة القطع، بحديث القرآن عنهم فى نصوص قاطعة صريحة، كالآيات التى فى صدر سورة الجن، وكقوله ـ تعالى ـ فى سورة الأحقاف: ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ﴾ إلى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ويجركم من عذاب اليم ﴾.

وقد أورد قصة الجن التى ساقها ابن إسحاق ورواها ابن هشام فى سيرته، فقد ذكرها البخارى ومسلم والترمذى على نحو قريب وبتفصيل آخر. انظر صحيح البخارى ج ٦ ص ٧٣، وفتح البارى ج ٨ ص ٤٧٣، وانظر: عيون الأثر لابن سيد الناس ج ١ ص ١١٨.

(٣) قال ـ تعالى ـ: ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ﴾ الآية. سورة الإسراء، آية: ١.

قتله[1] وقد وصف القرآن بعض غزواته مثل غزوة بدر[2] وأحد[3] والخندق[4] وحنين التى كانت درسا فى العقيدة الإسلامية، وقانون الأسباب والمسببات من نوع ذلك الدرس الذى أوحت به غزوة بدر، بل هو متمم له.

فإذا كانت موقعة بدر قد قررت للمسلمين أن القلة لا تضرهم شيئا فى جنب كثرة أعدائهم إذاكانوا صابرين ومتقين، فإن غزوة حنين قد قررت للمسلمين أن الكثرة أيضا لا تفيدهم إذا لم يكونوا صابرين ومتقين.

---

(١) قال ـ تعالى ـ: ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ الأنفال، آية: ٣٠ ويقول جل علاه: ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ﴾ الآية. سورة التوبة، آية: ٤٠.

(٢) غزوة بدر الكبرى التى أعز الله ـ تعالى ـ فيها الإسلام ونصر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين، نزلت فيها آيات كثيرة منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ سورة آل عمران، آية: ١٢٣، كما نزلت فيها آيات أخرى تنظم توزيع الغنائم كما فى سورة الأنفال: ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين ﴾ الآيات: ٤١ ـ ٤٥.

(٣) أنزل الله ـ تعالى ـ فى غزوة أحد آيات آل عمران تعليقا على إرجاف اليهود والمنافقين، وبيانا لحكمة ما حصل فى غزوة أحد، هى تبدأ بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم ﴾ إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ سورة آل عمران ١٣١ ـ ١٦٨، وانظر البخارى ج ٥ ص ٤٩.

(٤) ونزلت فيها سورة الأحزاب، وبينت كل ما يتعلق بظروف هذه الغزوة، وأن الله ـ تعالى ـ نصر عبده وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

كما نزلت آيات من كتاب الله ـ تعالى ـ فى تقرير العبرة فى غزوة «بدر» فقد نزلت آيات منه أيضا فى تقرير العبرة التى ينبغى أن تؤخذ من «حنين» وأنزل الله ـ جل علاه ـ هذه العظة البليغة فى كتابه الكريم: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

كما تناولت آيات الكتاب العزيز قصة زواجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أم المؤمنين زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ يقول ـ تعالى ـ:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾(٢).

إلى غير ذلك من الآيات التى تناولت هذا الجانب من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ٢٥ ـ ٢٧.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.

أما الأسلوب الثانى: الذى عرض به القرآن الكريم سيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو التعليق على الوقائع والأحداث، وذلك للإجابة على ما قد استشكل فى شأنها، أو لكشف بعض الغوامض بها، أو لفت نظر المسلمين إلى وجه العبرة والموعظة فيها. وكل ذلك إنما يرتبط بجانب ما من سيرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو شأن من شئونه. فهى بذلك تجلي لنا الكثير من مراحل حياته ومختلف شئونه وأعماله.

ومن ذلك قصة الإفك وما فيها من دروس وعظات، فقد أنزل الله ـ تعالى ـ عشر آيات ببراءة أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ وإدانة المنافقين والخاطئين، يقول الله ـ جل شأنه ـ:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

إلى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

ومثل حادثة الظهار التي نزل فيها قول ربنا ـ جل علاه ـ:

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ

(١) سورة النور، الآيات: ١١ ـ ٢٠.

سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ الآية . . . إلى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] وفى اسم هذه المجادلة ونسبتها وسبب نزول هذه آراء لأهل العلم[2].

وكسورة التحريم التى بقول الله ـ تعالى ـ فى أولها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الآيات[3] واختلف أيضا فى سبب نزول هذه الآيات[4].

---

(١) سورة المجادلة، الآيات: ١ ـ ٤ قال ابن كثير: أصل الظهار مشتق من الظهر، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها: أنت على كظهر أمى، ثم فى الشرع كان الظهار فى سائر الأعضاء قياسا على الظهر، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقا، فأرخص الله لهذه الأمة، وجعل فيه كفارة، ولم يجعله طلاقا كماكانوا يعتمدونه فى جاهليتهم، هكذا قال غير واحد من السلف ١٠هـ. انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٤٢، دار المعرفة بيروت سنة ١٩٨٦م

(٢) انظر: زاد المسير ج ٨ ص ١٨٠، ١٨١ وأسباب النزول للواحدى ص ٣٠٤، وتفسير الطبرى ج ٢٨ ص ٦٠٥ والمستدرك للحاكم ٢/ ٨١، وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٦٣) والسنن الكبرى للبيهقى ج ٧ ص ٣٨٢.

(٣) سورة التحريم، الآية: ١.

(٤) انظر صحيح البخارى ج ١١ ص ٢٩٥ وصحيح مسلم ج ٢ ص ١ ـ ١١ ـ ٢ ـ ١١ وأسباب النزول للواحدى ص ٣٢٥، وتفسير الطبرى ١٥٦/٢٨، وزاد المسير ج ٨ ص ٣٠٢، ٣٠٣.

كما تولى القرآن الكريم الإجابة على الأسئلة التى كانت توجه للنبى - صلى الله عليه وسلم - ومن ذلك الأسئلة التى يطرحها بعض أهل الكتاب من اليهود مثل سؤالهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الروح[1]، ولقد أجاب القرآن الكريم على سؤالهم هذا، يقول الحق - جل علاه -: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٢).

إلى غير ذلك من آيات القرآن الكريم التى نزلت تتحدث عن جوانب كثيرة ومتعددة من سيرة المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه.

## خلاصة القول:-

١ - أن الفهم الصحيح لجانب من كتاب الله - جل شأنه - إنما يكون من خلال الدراسة المتأنية والفاحصة لسيرة رسول الله الكريم - صلى الله عليه وسلم - والوقوف على حِكَمِها البالغة، وأسرارها الدقيقة.

٢ - أن القرآن الكريم تناول الملامح العامة لسيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتحدث عنها من خلال أسلوبين:-

---

(١) فقد أورد هذا البخارى فى صحيحه فى كتاب العلم ج ٢ ص ٤٧، انظر «حوار الرسول ﷺ مع اليهود، الأستاذ الدكتور/ محسن بن محمد عبد الناظر ص ١٧ فما بعدها.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥

الأول: تناول بعض مشاهد من حياة المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسيرته

تمثل ذلك في الآيات التي نزلت في وصف غزواته، وحياته مع أزواجه ـ رضى الله عنهن ـ ومعاملته لأصحابه. وأسلوبه فى الدعوة إلى الله تعالى.

الثانى: تولى القرآن الكريم التعليق على الأحداث والوقائع، وذلك من خلال الإجابة على ما قد يُشْكِل، وكشف الغوامض التى تحيط بالأحداث، ولفت نظر المسلمين إلى ما فيها من عبرة وموعظة.

٣ ـ أن حديث القرآن الكريم عن ذلك إنما يأتى بإيجاز، فهو لا يتعدى بيان الملامح العامة والعرض الإجمالى السريع للوقائع والأخبار. والله تعالى أعلم.